غش جماعي!

اقتربت المذيعةُ الشابةُ في حذرٍ من ذلك الجمع الغفير من الناس يتبعُها شابٌّ ضئيلٌ أضجعَ على كتفِه النحيلِ كاميرا الفيديو التي صارت وكأنَّها جزءٌ من جسده، وقد بذلَ طاقتَه في حمايتها والحفاظ عليها.. ابتلعت جموعُ الناسِ الشابةَ المذعورةَ التي وجدت نفسَها فجأةً في بؤرةِ الحدثِ.. كان عليها أن تتعاملَ بسرعةٍ بحكمِ عملِها وتلتقطُ الخيطَ الأولَ في الحوار، بعد أن تتخذَ الكادر المناسب أمام عدسة الكاميرا مع الذين تحاورهم...

كانت المذيعةُ اللامعةُ منذُ أن استقلَّت السيارةَ التي تحملُ رمزَ القناةِ الفضائيةِ الشهيرةِ – بصحبةِ طاقمِ التصويرِ والإخراجِ – إلى أن وطأت قدماها موقعَ التصوير تعلمُ السببَ الذي أتت من أجله... لم يكن غريبًا في استنتاجه أو توقُّعه، كما لم يكن ليخفى على الملايين الذين تجاوزوا المائة ويشكِّلون قوام هذه البلد... كان أولُ أيام امتحانات الثانوية العامة، وكان موضعُ التصوير أمام بوابةِ المدرسةِ العريقةِ التي تضمُّ عددًا كبيرًا من اللجان داخلها...

كان الأمرُ على ما فيه من أحداثٍ يبدو عاديًّا مألوفًا، على الرغم مما يحمله جوُّ الامتحانات من شحناتِ توترٍ، وتباين في المشاعر بين الضحك والبكاء، والفرحة والحزن، وكيف لا؟ وهو الموضع الذي يُختزل فيه جهد عامٍ كاملٍ، وعنق الزجاجة الضيق الذي تخرج منه إلى غايتك، وتبدأ مشوارك العملي في الحياة وكفاحك، فيفوز من يفوز ويخسر من يخسر...

لم يغِب عن استنتاجها من الأسبابِ على كثرتها ما يبرر مثل هذا التجمهر، وقد قامت خلال سنوات عملها القليلة بتغطية مثل تلك الأحداث، ولم تكن ببعيد عنها ذكرياتُ أيام دراستها وما شقَّ عليها مما لاقته من موادِ الدراسةِ التي تتأرجحُ الاختباراتُ فيها بين السهولة والتعقيد... إنَّه إحساسٌ مرعبٌ بالمسئولية تجاه نفسِكَ وأسرتِكَ... موقفٌ يتحدَّدُ معه مستقبلُكَ، وتتوقفُ عليه حياتُكَ... يُضَافُ إلى ذلك ما زادَ مؤخرًا فيما اعتادت عليه ميادينُنا من ثورات، وتجمعات، ووقفات احتجاجية...

لم تجد الحيرةُ إلى عقلها مسلكًا، وقد توقَّعت مُسبَقًا ما سيجري على الألسنةِ من حواراتٍ، لكن هذه المرَّة بدا الوضع مختلفًا في أولِ مشهدٍ جمعها بهؤلاء خلف الكاميرا!

لم تستوعب الفتاةُ من الأقوال الثائرة ذات المعاني المشوَّشة والأفكار غير المرتَّبة سببًا للتجمع واضحًا، ولا مطلبًا محددًا...

التقطتها أمٌّ مفعمةٌ بالأسى تبكي لبكاء ابنتها، ويتمزَّق قلبها من أجلها... كانت الأمُّ وابنتها كغريقتين تعلقتا بقشَّة...

التقطتْ المذيعةُ من كلامِ الشاكيةِ وأمِّها ضررًا جسيمًا لحق بهما، وظلمًا فاحشًا سبَّب الضررَ لهما إزاء حالةٍ من الغشِّ الجماعيِّ أو الإكراه على الغشِّ... لم تستبين على وجه التحديد ماذا أرادتا!

والتقطتْ الأمُّ وابنتها من كلامِ المذيعةِ عبارةً... "لا للغشِّ!"... كانت كفيلة بأن أشعلت ثائرتهما كمن ألقي بالزيتِ على النارِ...

وانهمر وابلٌ من السبابِ واللعنات على فلان المراقب وعلَّان الملاحظ الذي لم يرحم توسلات الزهور والزهرات المتفتحات داخل اللجان ومنعهم الغشَّ، كما لو كان حجبَ عنهم حقًّا لا بديل للحياة بدونه!

- إزاي ما يساعدش ولادنا ولا حتى يسيبهم علشان ينجحوا! إيه هم ماعندهمش ولاد! ده كمان كان عايز يعمل لهم محضر غش!

لاحقت الفتاة أمها في الحديث، فسددت كلامها كالقذيفة المدوية:

- إشمعنا صاحبتي في اللجنة التانية تاخد الامتحان كله وأنا لأه!

أكَّدت كثيرات من الأمهات والآباء على هذا الكلام، وزادت عليه إحداهما بحرقةٍ:

- ده إنسان ماعندهوش رحمة! هو معندوش ولاد؟! كده يضيَّع مستقبلهم... وديني لأوريه!

وبالطبع تلقَّت المذيعةُ حملةً من الاتهامِ والتحاملِ بسببِ كلماتها التي أثارت استفزازهم، ونالت ما نالت من اللوم والتبكيت، فلزمتْ الصمتَ...

اندلعتْ شرارةُ الثورة وامتدت ألسنتها المتوهجة في عنفٍ فأحاط المتظاهرون بالمدرسةِ وتدافعوا على الأبوابِ يهددِّون ويتوعَّدون كلَّ من تسوِّلُ له نفسُه حرمانهم من حقِّهم السليب...

خرجَ عددٌ من الأشخاص من المدرسة وقد ارتسمَت على وجوههم ملامحُ الذعر والارتباك، يحوطهم أفرادٌ من رجال الشرطة، وقد استماتوا في فتح الطريق أمامهم وسط موجة عارمة من السباب والبذاءات...

لم تجدْ المذيعةُ المصدومةُ نفعًا من وراء هذا الحوار، وقد سبقَها إلى السيارةِ المصوِّرُ الذي نأى بكاميرته عن هذا التدافع وهي عهدته الثمينة، فخلَّصتْ نفسَها من هذا المأزق بصعوبةٍ بعد أن انتقلتْ رحى الصراع إليها حينما أفلتَ من قبضتهم المتسبِّبون في المشكلة...

جلستْ المذيعةُ داخل السيارة تتنفسُ الصعداء بعد أن نجتْ بأعجوبةٍ من تلك المعركة... سألتْ المخرجَ في حيرةٍ عن الحلقة، كيف ستُذاعُ وقد أخذتْ منحًى مختلفًا عمَّا أعدَّته لها... أهي ثورةٌ على الغشِّ لمنعه، أم المطالبة به؟!

طمأنها المخرجُ الخبيرُ المتمرِّسُ... ستُذاع الحلقةُ كما نريدُ نحن لا كما يريدون هم؛ فالمونتاج سيصلحُ الأمرَ وسيخرج بالحلقة كما أُعدَّ لها تمامًا...

انطلقتْ السيارةُ بهم، وقد عزموا ألَّا يعودوا، وعزمَ الجمعُ الثائرُ على الانتقامِ من العاملين باللجنة في الغدِّ إن كرَّروا ما فعلوه ومنعوا فلذات أكبادهم من تحقيق رغباتهم...

*****